صارت الفتوى فوضى

في عهد سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز كان طلبة العلم يتهيّبون أن يفتوا بفتوى تخالف فتوى سماحته، فقد كان مرجعية كبرى ورمزاً علمياً يُحسب حسابه، بل كان إماماً للعالم الإسلامي بأسره لطول رحلته العلميّة وتقيده بالكتاب والسنة واليوم صارت الفتوى فوضى، فأحد المشايخ يفتي بجواز حل السحر بالسحر، وشيخ آخر يفتي بعده بليلة في التلفزيون السعودي بتحريم ذلك، وفتوى أخرى بجواز إرضاع الكبير للحاجة، وفتوى بعدها بليالي تقول: إنها فتوى عين لا عموم لها ولا يمكن العمل بها، وصار الناس في أمر مريج أمام تناقض الفتيا واختلاف المفتين، فما هو الحل أمام هذه المعضلة وكيف نوجه الناس للأخذ بالفتوى السديدة الراشدة خاصة في القضايا الكبرى العامة التي تشغل الناس.

وقد كان علماء السلف يخافون من الفتيا ويحيل بعضهم على بعض ورعاً وتقوى، أما اليوم ومع انتشار الفضائيات فصار الكثير منهم يحرص على الفتيا ويطلبها ويلح عليها وأنا أعجب من بعض طلبة العلم وقد كفاهم الله عواقب الإفتاء بإسنادها إلى غيرهم ولكنهم أصروا إلا الإدلاء بآرائهم، فمثلاً أخونا الشيخ عادل الكلباني والد الجميع حافظ لكتاب الله وصوته جميل وهو إمام وخطيب للجامع ولكنه أصر أن يشارك في الفتيا ولو لم يسأله أحد، فأفتى بجواز سماع الغناء بشروط وبضوابط، ثم أخبرنا أنه لا يستمع الغناء ورعاً وتقوى، فما السبب إذاً في فتواه هذه؟ هل أراد أن يوسّع على الأمة في مسألة الغناء يوم رآها أعرضت عن اللهو والغناء والطرب وهي غارقة إلى أذنيها أصلاً بالسهرات الضائعة والحفلات اللاهية حتى أصبح الشباب يرقصون مع صوت المزمار ويتمايلون مع نغمات الفنانين، فما مقصد الشيخ عادل الكلباني والد الجميع وقد أُسندت الفتيا عندنا إلى لجنة دائمة فسقط عنا الإثم بالسكوت على الفتيا؟

ولماذا يسرع الأئمــة والخطباء وحفظة القرآن إلى الإفتاء، ومنصب الإفتاء لا يحصل لطالب العلم إلا بعد اطلاع واسع وفهم عميق بدلالة الكتاب والسنة، وعلم بالواقــع، ومعرفة بالناسخ والمنســوخ، والعام والخاص، والمطلــق والمقيد، والمجمل والمبّين، مع تقوى وورع وفقه نفس، ولكن أئمة المساجد والخطباء اختصروا المسألة وقفــزوا إلى وسائل الإعلام يفتــون الناس طلباً للجاه والله المطلع على المقاصد، يا طلبــة العلــم، أريحوا العامة وارحموا الناس من هــذه الفوضى في الإفتاء، واتركوا الأمور لمن أُسندت إليه ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

obeikandl.com

العالم الثالث في غيبوبة

نحن في العالم الثالث نهتم برفع العمارات ومد الجسور ونصب الكباري وإنشاء النوافير وهذا شيء جميل ولكن الأهم من ذلك هو بناء الإنسان في العالم الثالث وتأهيله وتدريبه وتمرينه ليكون عنده روح نظامية وذائقة جمالية ولياقة أخلاقية واحترام للنظام ولطف في المعاملة ورقة في المشاعر، وكلما حدثنا قومنا عن العالم الأول ورقيه المادي وذوقه الراقي ونجاحه في أمور دنياه وترتيبه لشؤون حياته صاح بنا بعض إخواننا وضجوا وصجوا، وقالوا لنا: اتقوا الله ولا تنقضوا عُرى الإسلام عروة عروة وكأن وضعهم السيئ من الجلافة والعجرفة والقسوة والفظاظة والغلظة هو ما يمثل الإسلام الدين العظيم، والحقيقة أن الإسلام رسالة مشرفة ومنهج قويم لكنه شيءٌ وواقعنا شيءٌ آخر نحن نفشل كثيراً في تطبيق تعاليم الإسلام وأخلاقياته السامية ومثله العليا، فإذا انتقدنا أحد تترسنا بالإسلام واحتمينا به أمام النقد والتقويم، فهل في الإسلام أيها العالم الثالث النائم، إفساد البيئة والتعدي على النظام ومخالفة الذوق العام وإهمال النظافة والدروشة ورفع الصوت في الأسواق والعبوس والتفاخر بالأنساب والطعن في الأحساب والعصبية الجاهلية والتمييز العنصري.

كلما ذهبنا إلى الشرق والغرب وخرجنا من العالم الثالث إلى العالم الأول وجدنا الفرق الشاسع والبون الكبير، وأشهد بالله إنهم قوم سيروا حياتهم وصناعتهم وإنتاجهم بدرجة عالية من الدقة والاحتراف والاتقان مع علمي بانحرافهم العقديّ وإفلاسهم في عالم الروح وتدهور صلتهم بالله العظيم لكن الإيجابيات التي حققوها في عالم الدنيا جديرٌ أن نستفيد منها، بالله عليكم انظروا إلى وضعنا في العالم الثالث لتجد أن هذا العالم صار عبئاً على العالم الثاني، فالعالم الثالث فيه يجتمع الفقر والجهل والمرض والأمية والمجاعة والبطالة والاستبداد والقتل والاغتيالات والتفجيرات والانقلابات وإن كنت في شك من

كلامي هذا فطالع نشرات الأخبار بتركيز وانظر إلى الصحف والمجلات باهتمام، بل إن العالم الأول يصنع لنا الإنترنت فيحوله سفهاؤنا إلى مزبلة من السباب والشتم والتهديد والوعيد والغيبة والنميمة ثم إن العالم الثالث عالم استهلاكي فوضوي غير منتج ولا منظم ولا مرتب وهو يحتاج إلى مئة عام حتى يصل إلى العالم الثاني فضلاً عن العالم الأول حتى استخدامنا لمنتجات العالم الأول ليست سليمة على ما يرام كالسيارة والطيارة والثلاجة والبرادة والسخانة والفرامة والحراثة والحصادة والحفارة وليتنا استعملناها استعمالاً لائقاً وقلنا لهم: شكراً لكننا أخذنا نهجوهم ونتهددهم وندعو عليهم في القنوت ونلعنهم بعد كل صلاة ولم نفرق بين العدو المحتل والمخالف المسالم ومَنْ بيننا وبينه مصالح مشتركة، بل بعضنا جعلهم في سلة واحدة ولعنهم جميعاً وتوعدهم بالغزو المسلح في عقر دارهم مع العلم أنهم هم أهل النووي والقنبلة الذرية وحاملات الطائرات والصواريخ والقاذفات والراجمات والمدفعية والكلاشنكوف.

أما نحن فاكتفينا بالعرضة والدبكة وإخراج التراث القديم البائس من الخناجر وجفان العود وصحاف الخشب والحبال البالية والقرب الممزقة والحجارة المهشمة والأبواب المخلعة وبيوت الطين المنهارة وقلنا للعالم: هذا تراثنا العظيم الذي ورثناه من الآباء والأجداد مع العلم أن العالم أصبح ينزل المركبات الفضائية على عطارد والمريخ وما هي ميزة تراثنا الشعبي البائس على ثراث أجداد اليابان والكوريين والإنجليز، إن العالم الثالث مازال في غرفة العناية المركزة ويحتاج إلى منشطات وأدوية حتى يفيق من الغيبوبة ويصحو من النوم، ولا يغرك ما تسمع من العنتريات وبيانات التمدن والتحضر وأننا محسودون وأن العالم مدهوش منا ومذهول من تقدمنا، فهذا كله كلام فارغ والعالم إلى الآن يرى أن العالم الثالث عبئاً ثقيلاً عليه يصعب التعامل معه.

ضبط الفتيا مهمة الحاكم المسلم

الشريعة الإسلامية ليست نهباً مشاعاً ولا حراجاً مفتوحاً لكل من هبَّ ودبَّ، إنها رسالة ربانية يحملها الأتقياء العقلاء العلماء، ويمكن للإنسان أن يُتاجر في كلّ مباح إلا الدِّين؛ فإنه يحرُم المتاجرة بشرع ربِّ العالمين، وقد سبق لخلفاء الإسلام أن وقفوا بحزم أمام من أراد أن يخوض في الشريعة دون أهليّة، وأوقفوه عند حدّه، وأخذوا على يده، وتحديد الفتيا هنا في السعودية لأهل الاختصاص من العلماء قرارٌ موفق ومسدَّد؛ لأنَّ الساحة بُليت بطُلاب وأساتذة وأئمة وخطباء خلطوا بين الدعوة والفتيا، وبينهما بونٌ شاسع؛ فالدعوة تبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ وهدايةٌ للناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

ومن يفهم آيةً من المسلمين وجب عليه أن يبلّغها غيرَه، قال ﷺ: «**بلّغوا عني ولو آية**»، لكنّ الفتيا شيء آخر، إنها رسوخ للعلم، وفهم للنص، واطّلاع على الواقع، وعلم بمقاصد الشريعة مع عقل راجح، وتقوى وورع. وقد أصبح الناس في أمرٍ مريج قبل أن يُبدأ بضبط الفتيا؛ فكثير يلبس بشته، ويتصدّر القنوات، فيفتي في كل سؤال، ويجيب عن كلّ إشكال، ومواقع الإنترنت صارت نوادي ليلية بالمجان لمن أراد فتوى سهلة ميسرة في المزاد العلني.

وليس عند المسلمين- كما قال خادم الحرمين الشريفين- أعزّ من دينهم دين الإسلام، فهو أعزّ من النفس والولد والوطن والمال، وبما أن في السعودية مهبط الوحي ومهد الرسالة ومنطلق النور وأرض الحرمين وجب علينا حاكماً ومحكومين أن نجعل رسالة الإسلام وشريعة الله أعظم ما نفاخر به، ونباهي به الأمم، ونستميت في الذبّ عنها، وحماية حياضها، والدّفاع عن حرماتها وقداستها بالقول والفعل وبالنفس والنفيس.

ونأمل من دول الإسلام كافة أن تتّخذ موقفاً إيجابياً من شريعة الله، وتحفظها وتصونها، وتمنع المتخرّصين والمتعجلين من الخوض فيها، وتسند أمور الفتيا لأهل الاختصاص من العلماء الراسخين؛ فليس كلّ من وعظ أفتى، وليس كل من حبّر خطبة أو أعدّ محاضرة أو ألقى درساً جديراً أن يفتي الناس في أمور دينهم، لماذا نتسرع في الفتيا ونتبرع بالإجابة عن الأسئلة بالتخمين والظن والوهم؟ وقد ندّد الله بهذا المسلك المشين، وهو الافتراء على كتابه وسنة رسوله ﷺ فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾، حرامٌ علينا أن نخدع الناس في أمر دينهم، ونغرّر بهم، ونقدّم لهم إجابات خاطئة، وحرامٌ علينا أن نتنافس في التصدّر وطلب المنزلة عند الناس ونسيان رقابة ربّ الناس.

قد تخمّن في السياسة، فتُصيب وتخطئ، وقد تتكلم في الفكر بالصحيح والغلط، وقد تُلمّ في الثقافة العامة بوجهات النظر، لكن الشريعة المقدَّسة المطهَّرة شيءٌ آخرُ؛ إنها رسالةٌ أتى بها الرسولُ ﷺ عن جبريلَ الأمين عن ربّ العالمين: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾.

إخواني طلبةَ العلم والدعاة والخطباء والوعّاظ والمثقفين والمفكرين، قدِّسوا الشريعة المحمدية، احترموا الرسالة الخالدة، وقِّروا تعاليم الله وتعاليم رسوله ﷺ لا يُفتِ إلا عالمٌ، ولا يُجبْ إلا فقيهٌ، ولا يتصدّرْ إلا مقتدرٌ، ويا أيتها الأمة الإسلامية، لا تأخذوا دينكم من أي متكلم، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وأهل الذكر هم العلماء المؤهلون للفتيا.

وكما أننا ندعو لاحترام التخصص الشرعي، فإننا ندعو لاحترام التخصصات كافة، فلا يجوز للطبيب أنْ يكونَ مهندساً بلا علم ولا خبرة، ولا يجوز للخيّاط أنْ يأخذَ مهنة النجّار بلا مِران ولا دُربة، فقد علمَ كلّ أناسٍ مَشربهم، وأعطوا القوس باريها، وليت رابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي واتحاد

علمـاء المسلمين والأزهر الشريف ومجالس الإفتـاء في أوروبا وآسيا أن تحذوَ حذوَ السعودية في حفظ الفتيا ومنع الخوض في أمور الشريعة والتلاعب بالدِّين وتضليل المسلمين وإشاعة الفوضى وتضارب الأقوال والأجوبة على عوامّ الناس.

obeikandl.com

قتلتنا الجزئيات

نحن قوم شغلتنا الجزئيات عن الكليات والفروع عن الأصول والقالب عن المضمون والصوت والصورة عن السمت والسيرة، تطاحنّا فيما بيننا على مسائل خلافية وتركنا الدعوة إلى أصول الملة من تصحيح التوحيد وتقوية الإيمان وتهذيب الأخلاق وإقامة العدل ونشر السلام والدعوة بالحكمة وإشاعة الأخوة وعمارة الأرض بالزراعة والصناعة والاكتشاف والبناء، العلماء مشغولون بمسألة الغناء وإرضاع الكبير وكشف وجه المرأة والاختلاط وقيادة المرأة للسيارة، وفي العالم الإسلامي ملايين يجهلون التوحيد وإخلاص العبودية لله، فهم يطوفون بالأضرحة ويلوذون بالقبور ويعلقون التمائم وينوحون عند مقابر الأولياء، والشباب تعصف بهم موجة الغلو والمخدرات والتحلل من الدين، الناس مشغولون بالحياة اختراعاً وبناءً وتعميراً، ونحن مشغولون بالجدل والخلاف المذموم والقيل والقال، انهمكنا في مسائل طُبخت واحترقت من أكثر من ألف عام ومازلنا نعيد الكلام ونكرر العبارات ونجترّ الخلاف، تشاغلنا بالتقليد والمحاكاة على حساب التجديد، ورضينا بحفظ كلام الأئمة على حساب الاستنباط والفهم من الكتاب والسنة.

صنّع الغرب الراديو والتلفزيون والميكرفون وآلة التصوير فتقاتلنا نحن في حكم استعمالها، قدّم الغرب الثلاجة والبرادة والسخّانة والفرّامة والطيّارة والسيّارة والحفّارة والحرّاثة وكان المفروض أن نقدم لهم الإيمان والأخلاق والسكينة والرحمة والسلام والهداية لكننا تشاغلنا بسبهم وتهديدهم والدعاء عليهم بالويل والثبور وعظائم الأمور وقاصمة الظهور، أرسلوا لنا أطباء ومهندسين ومخترعين، وذهب بعض شبابنا إليهم مفجرين ومدمرين، كان أسلافنا يفتحون الشرق والغرب بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مع العدل والمساواة والحرية والسلام، ونحن قعدنا في أماكننا نلوم أنفسنا وننـدب حظنا ونتغنى بماضينا ونتناحر فيما بيننا على جزئيات المسائل ومفردات من السنن، كل سنة نخرج للعالم بحملة هائلة من الضجيج والصجيج، والصياح والنواح والصراخ في

مسألـة قيادة المرأة للسيـارة وسفرها إلى مكة بالطائرة بـلا محرم واستخدامها للعدسات اللاصقة وحكم الموسيقى ومشاركة الدعاة في بعض القنوات الفضائية.

بالله هل انشغل عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفـاتح ويوسـف بن تاشفين وعلمـاء الأمة من المجددين والمصلحين بالخلافيات والردود علـى بعض والجدل السقيم العقيم أم سارت كتائبهم وأشرقت شموسهم بالفتـح المبين والنصـر المكين والدعـوة إلى توحيد رب العالمين، آسـف وأنا أطالع صحفنـا ومواقع النت وأشاهـد قنواتنا، وإذا الردود الساخنـة والأجوبة الطاحنة على المخالف في مسائل يسع فيها الخلاف، لماذا لا تُعطى كل مسألة حجمها؟ ولماذا لا نتشاغـل بكبـار المسائل وأصـول الملة وعظائم الأمور؟ لمـاذا لا ترتفع هممنا إلى القضايـا المصيرية ونكون على قدر المسؤولية؛ ليصدق فينا قول الباري: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.

وإذا كـانـت الـنـفـوسُ كـبـارًا
تـعـبـتْ في مـرادِهـا الأجـسـامُ

لقـد صارت الفتوى عندنـا فوضى، أصبح كل من حفظ شيئـاً من القرآن مع حديثـين من السنـة ولبس بشتـاً وأعفى لحيته يفتـي الأمة تبرعاً مـن عنده وحبًّا للتصـدر، شباب في القنـوات الفضائيـة يُسألون في مسائل لـو عرضت على عمر ابـن الخطاب لجمع لها أهـل بدر، فيجيب هؤلاء بلا تأمل ولا روية، والكتّاب عندنا والمثقفـون يصفقون لمن يحلل لهم ويسهّل ويفتح أبواب المباح دون ضوابط شرعية، فكلمـا أفتيـت بالجواز وقلت للناس: خذوا راحتكـم، وما عليكم، ومالـه؟ والأمر سهل، وسع صدرك، والمسألة بسيطة، وافعل ولا حرج، والموضوع هيّن، فأنت النجم اللامع، والقمـر الساطع، والفقيه الذكي والملم بأحـوال العصر، ولو كانت الفتوى غلطـاً والجواب شططاً، أيها الأخوة، اليهـود زادوا مجرد نقطة، فوقعوا في ورطة، وسقطوا سقطة، وارتكبوا غلطة، قيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾، فقالوا: حنطة.

الحوار عندنا لم يُفعَّل

شاركت كغيري في حضور بعض لقاءات مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني وقد استبشرنا كلنا خيراً بهذه اللقاءات وظننا أنها ستترجم إلى أرض الواقع وتنتقل من خطابات شفوية وتوصيات عامة إلى عمل ميداني على مذهب: (الميدان يا حميدان) ولكن مرت سنوات ولا تزال هذه اللقاءات تنتهي بتوصيات شفوية أشبه بتوصيات مجلس التعاون والجامعة العربية.

أتلمَّس أثر الحوار الوطني في المجالس والمدارس والجامعات والمساجد والأندية والأحياء فلا أجد أثراً، لقد شبع الناس من الكلام، يريدون أعمالاً لا أقوالاً، وإصلاحات لا تصريحات، لماذا لا يدخل الحوار الوطني مادة الحوار في المدارس والجامعات؟ لماذا لا يُنشأ معهدٌ لهذا الخصوص؟ لماذا لا يعرض الحوار في خطب الجمعة والدروس العامة؟ لماذا لم يقم الإعلام بحملة قوية لتفهيم الناس وتثقيفهم بأساليب الحوار؟ لماذا لم تُطبع كتب في هذا الباب؟ لماذا لم تُنشأ نوادٍ في المدن والقرى والأرياف تعلم الناس فن الحوار؟ نحن في الحوار ما زلنا في أولى ابتدائي نحتاج إلى سنوات طويلة لتعلم هذا الفن والعمل به وممارسته خلقًا وثقافة، نحن مازلنا نتفاهم بالعصا والمشعاب والعجراء والهراوة والملاكمة والعض والنهش والرفس والشتم والسب واستعداء السلطة والجمهور، سنوات على الحوار الوطني ولم ألاحظ أي تغيّر في تعاملنا.

فبعض الأساتذة يُضربون من الطلاب ضرب غرائب الإبل، وشاب رفس أمه حتى ماتت، وفتىً عنيد مريد قتل أباه بالمسدس، وزوج شرير فاجر كسر ضلعين لزوجته وشج رأسها، وشيخ قبيلة يرفض آراء كل القبيلة ويجبرهم على رأيه فحسب، ومدير مدرسة حوّل المدرسة إلى ثكنة عسكرية وكأنه ضابط من ضباط الكومندوز، وخطيب جمعة يهدد ويتوعد العُصاة ويتربص بهم الدوائر، وكاتب يجلد الناجحين بقلمه كل يوم، وصياح وصراخ وزعيق ونعيق ونهيق في النوادي

والمجالس، نحن لا نحتاج إلى مزيد من المؤتمرات واللقاءات والتوصيات، نحن نريد عملاً مثمراً وأثراً ملموساً نعيشه ونلمسه ونحسُّه؛ ليغيّر من حياتنا الصاخبة الهائجة المائجة إلى حياة حوار وأمن وسكينة وحب وسلام.

إن الشريعة الإسلامية مليئة بنصوص الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن والرفق واللين ولكنها تبقى نصوصاً محفوظة لا ننتفع بها ما لم نفعِّلها في حياتنا، آمل أن نسحب من قاموس حياتنا كلمات التهديد والوعيد والتنديد، والعذاب الشديد، والبطش الأكيد لمن خالفنا، نحن نحمل غضبات مضرية جوفاء ولكننا لم نقتل ذباباً، نحن في حاجة إلى صوت هادئ ودليل مقنع وحجة واضحة وحوار بنّاء، فقد تعبنا من النهر والزجر والتوبيخ والتعنيف الذي حرمه الله ورسوله ﷺ، إن العظماء قوتهم في عقولهم وحجتهم في أفكارهم وإنجازاتهم في أعمالهم، وإن الأغبياء والحمقى أدلتهم في عضلاتهم، وبراهينهم في صراخهم، وآثارهم لا تتجاوز حناجرهم، قال الله تعالى في البلداء الفاشلين الساقطين الذين عطلوا التفكير، وألغوا العقل وردوا الحق وصرخوا في وجه البيّنة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، الأمم الناجحة يَقِلُّ كلامها، وتسمو أخلاقها، ويهدأ غضبها، ويتلاشى صراخها، والأمم الفاشلة كالطبل الأجوف صوت ولا أثر، وكالمزمار الأخرق نغمة بلا صدى، وكالبالون المنفوخ بهرج بلا قيمة.

لمن أراد دخول جامعة الحياة

الحيـاة معرفة الواجب والقيـام به، وما عداهما غثـاء، الحياة في سبيل الله بنـاء وفتـح وانتصار، والحياة سوف تكون أكثر جمالاً بـلا أشرار ولا فاشلين، لكن كتـب على الدنيا النقص والفناء، سهل علـى الإنسان أن يعيش لكـن الصعب أن يعيشـ كمـا يحب، الحياة كتـاب من فهم نصوصـه عاش سعيداً لكـن الأغبياء لا يقرؤون أصلاً، الحياة خليّة تستقبل الأحياء وتلفظ الأموات، الحياة صراع لا يفوز بخيراتهـا إلا الشجعان، أمـا الجبناء فحظهم الحرمان، الحيـاة فرصة واحدة لا تتكـرر إن حرصت عليها فـزت وإن فاتت فمتّ أسفاً، الحيـاة ليست ملكاً لأحد إلا للواحـد الأحد ولـن يحجبك عن المجد أحـد، إذا أردت فصمـم وتقدّم ولا تحجم فتنـدم، لـن يتصدق أحد عليـك بالنجاح فالـكل هلوع منوع جـزوع، فاعتمد على نفسـك وتـوكل على الله، إذا رسبـت في مدرسة الحياة فلن يقبلـك أحد ولو نزلت الملائكـة تشفـع لك، وإذا نجحت في جامعـة الحياة انحنى لـك العظماء احتراماً وتقديراً، إذا كانت الحياة مائدة وكأساً وسريراً وحريراً فالبهائم أسعد بها، ولكن الحياة عقل يفكّر، ويد تعمّر، وقلم يحبّر، وثناء معطّر، وعلم مسطّر.

في الحيـاة لوحـة مكتوب فيهـا: (خطر ممنـوع الاقتراب) يقرؤهـا الجبناء والكسـالى فيبتعدون، ولكن الشجعان والأذكياء يخلعون اللوحة ويقتحمون، الحياة ليسـت شهـادات فخريّـة ولا مجـداً حصـل بالوراثـة، وإنما هي زخـات من عرق التضحيـة، وقطـرات من دم الفـداء، وآهات من أنين الكادحـين، إذا خضت بحر الحيـاة ورُميـت بالطوب مـن الحساد فمعناه أنـك وصلت بلاط المجـد وأصبحت مدفعيـة الشرف والفخر تطلق إحدى وعشريـن طلقة احتفاء بقدومك، في الحياة لـو جلس أبـوك على الجوزاء وأنت صفر لما أجلسك النـاس إلا في المؤخرة، الحياة ترحب بالعجوز المناضلة وترفض الشاب الخامل، الحياة لا تقيس الناس بالأمتار، ولا تـزن لحومهم بالأرطال، وإنما تُقَايس بين العقـول وتفاضل بين الهمم، الحياة

سـوق كبيرة فيها عرضـ وطلب بقدر ما تعطي تأخذ، في الحياة لن تشتري الذهب بالخشب، ولن تحصل على وجبة غداء مجاناً.

الحيـاة سباق ولن يسبق الحمار الفرس أبداً، إذا نظرت للحياة بروح جميلة صارت أمامك حدائق غناء من الخمائل والجداول والبلابل، وإذا نظرت لها بروح بائسـة تمثلت لك أطـلالاً بالية من الصـروح الخاوية والأجـداث الزائلة، الحياة السعيـدة ضمير حي، وروح طاهـرة، وجسم سليم، ونفس قنوعة، والحياة التعيسة لهث وراء المادة، وفكر خواء من المعرفة، ونفس متدنسة بالآثام، وجسد مرتع للوباء، حـرر نفسك من طاغوت المال وصنم الأنانية وشيطان الحسد، كن في الحياة نخلة طلعهـا هضيـم، ولا تكن حنظلة ثمرها مر سقيم عقيـم، فالنخل باسقات لها طلع نضيد، والحنظل خاويات لها ثمر سام يقطع الوريد، كن في الحياة كالنحلة تطوف على الزهور ترشف الرحيق ثم تضع عسلاً مصفّى، ولا تكن ذباباً يقع على الأذى، ويحمل القذى، ويلوّث الجروح، ويدنس الأجسام.

وصفة بمليار دولار

قال حكيم: نصحني الناصحون فلم أجد أنصح من الشيب، ووعظني الوعاظ فلم أجد أوعظ من الدهر، واستضأت بنور الشمس وضوء القمر فلم أجد أحسن ضياء من الطاعة، واستوحشتُ من الظلام فلم أجد أوحش من الظلم، وذقتُ السم الزعاف والدواء المر فلم أجد أمرّ من الفقر، وعاداني الرجال فلم أجد أعدى من نفسي التي بين جنبي، ونازلت الأبطال وصارعتُ الأقران فلم أحد أشرس من المرأة السوء، وأكلت ألذ الطعام وأحلى الشراب فلم أجد أحسن من العافية، ورميت بالسهام وجرحت بالسيوف فلم أجد أشد ألماً من الكلام الجارح، وذقتُ العزلة وقاسيت الوحشة فلم أجد أقسى من قرين السوء، ودخلت السجون وقيدت في الأغلال فلم يهدّني كالهم والحزن، وشيدت القصور وبنيت الدور فلم أجد كالثناء الحسن.

وتصدقت بالكنوز وأنفقت الذخائر فلم أجد صدقة كهداية ضال، ولبست مطارف الخز ووشي الحرير وناعم الديباج فلم ألبس أجمل من لباس الصلاح، وجمعتُ الأموال وحصّلت الخزائن فلم أجد كالقناعة كنزاً، ودافعت عن نفسي بلا عوان، واستعنت بالإخوان فلم أجد ناصراً كالجود، وخذلني القريب وحاربني البعيد فلم أجد أشد من شماتة العدو، وتنعمت بالحدائق الغناء والبساتين الفيحاء فلم أجد أجمل من مجالسة العلماء، وصاحبتُ الأصدقاء وأنست بالرفقاء فلم أجد جليساً خيراً من كتاب، وخذلني قومي وخاب ظني في أصحابي فلم أجد من نصرني مثل مالي، وتذكرت من أحسن إليّ وأنعم علي فلم أجد منعماً إلا الله، ومرت بي المكاره ووقعت في الكربات فلم أجد أشد كربة وأكثر غربة من القبر، وهبت الملوك وخفت السلاطين فلم أجد أهيب ولا أرهب من الموت.

وبحثت عـن السرور وما يجلب راحة القلب فما وجدتُ كفعل المعروف، ورأيت صـور الشناعة ووجوه البشاعة فما رأيت أقبح من الكذب، وذقت الأسقام وعانيت الآلام فلـم أجـد أكثر داء ولا أخبث زاداً من البخـل، والتمست النجاة وفتشت عن السلامة فلم أجد أنجى ولا أسلم من الصدق، وجربت كل دواء لطرد الهم وبحثت عن كل وصفة لإزالة الغم فما وجدتُ أهنأ ولا أمرأ من ذكر الله.

obeikandl.com

متى يكون النجاح خطيئة؟

إذا عاشت الشعوب الجهل والتخلف أُصيبت بداء التّعصب المذهبي والتّحجر الفكري والاستبداد السياسي، فلا تعرف إلا ما وُلدت عليه وورثته من الآباء والأجداد ولو خالف الحق، قال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، حينها يُعدّ الرأي المخالف لهذه الشعوب ولو كان صحيحاً منكراً ومردوداً ويُهاجم كل مبدع وناجح، يقول فولتير كما في كتاب (متعة الحديث) للداود: النجاح خطيئة يرتكبها بعض الناس بحسن نيّة لكن زملاءه لا يغفرونها له، وأقول: كم من كرامة لعظيم مرّغها الجهّال بالتراب وانظر لما واجهه الأنبياء عليهم السلام من هجوم وعداوة من الحمقى والسفلة عبدة الأصنام، ويسكت بعض العظماء عن قول الحقيقة؛ خوفاً من سطوة الدهماء وغضبة الغوغاء، حتى يقول شوقي:

قالتِ الضفدعُ قولاً
فهمته الحكماءُ
في فمي ماء وهل
ينطقُ مَنْ في فيه ماءُ؟!

ومثله بالشعبي قال الشاعر الكبير أبو زيد محمد بن أحمد السديري:

كم واحدٍ له غايةٍ ما هرجها
يكنّها لو هو للأدنين محتاجْ
يقضب عليك المخطيه من حججها
نباه وقلبه اسود من الصاجْ

والمعنى: كم من إنسانٍ عنده سر خاص لا يبوح به حتى على أقرب قريب

منه؛ لأن من الناس من لا يؤتمن على الأسرار وليس محلاً للشكوى ويفرح بالخطأ والزّلة بينما تجد ظاهره معك فهو يظهر لك الصداقة والمودة بينما باطنه أسودّ من الحقد والحسد، أشدُّ سواداً من صاج الحديد الذي غيّرته النار والدخان، وأنا أُعزّي اللامعين والناجحين الذين يواجهون هجوماً ساحقاً من الأغبياء بسيرة سيد الخلق ﷺ وهو يُجابه بجاهلية جهلاء تكوِّن أحزاباً ضده وضد دعوته من مشركين أوغاد ومنافقين خونة ويهود ماكرين ونصارى حاقدين وأقارب جفاة فيصبر ويحتسب ويواصل وينتصر ويتوج بتاج: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. يقول الشاعر عبدالله البردّوني يحيي سيد الخلق ونبي الأمة ﷺ ويصف شجاعته وصموده وصبره:

وشبَّ طفل الهدى المحبوب متشحاً
بالمجد متزراً بالنورِ والنارِ
في كفه شعلة تهدي وفي دمه
عقيدة تتحدى كل جبارِ

وانظر لعصر فتوحات المسلمين كيف حصل التجديد والإبداع، واتسعت الصدور للخلاف السائغ واشتغلت الأمة بالفتوحات والانتصارات والبناء والتّمدن، فلما ضعف حال الأمة وأصابها الهزال وقعت في حروب وهميّة من الخلاف المذهبي والتّعصب والتقليد في ظل ظلم وجبروت من خلفاء بعضهم صبيان وبعضهم كبار سفهاء حتى يقول عن بعضهم الذهبي وابن كثير: واشتغل هذا الخليفة بالجواري والشرب والغناء وكان مغرماً بمهارشة الكلاب ونطاح الكباش، فانحصر في عهدهم الإبداع العقلي والتجديد العلمي واُضطهد الأئمة والعباقرة والنبغاء فوُضع ابن تيمية في الحبس وطُورد ابن خلدون وقُتل المتنبي في الصحراء وحُجر على ابن رشد في بيته وأُحرقت كتب ابن حزم وطُرد من مدينته وأُغتيل لسان الدّين بن الخطيب، إذاً الإبداع والنجاح والتّفوق والموهبة خطيئة لا تُغتفر عند المحبطين

والفاشلين والكسالى والأدعياء، أما في مجتمع القيم والهمم والعزائم فإن الموهبة تُحترم والمتميز يُقدّر والنابغة يُكرم وأهل الفضل يُصدّرون وهذه قاعدة اجتماعيّة وسُنّة تاريخيّة: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾.

obeikandl.com

العرب طلّقوا الدنيا فتزوجها الغرب

يردد بعض الوعاظ في خطبهم قول الناظم:

إن لله عباداً فطنًا

طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

وهذا البيت له معنى صحيح وخاطئ، أما المعنى الصحيح فإن عباد الله لا تشغلهم الدنيا عن طاعة الله ولا يجعلون الدنيا أكبر همهم ولا مبلغ علمهم ولا غاية قصدهم بل يجعلونها ممرًّا للآخرة، والمعنى الخاطئ هو رفض الدنيا بالكلية وعدم التزود من حلالها وترك عمارها والله يقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. أي لتقوموا بعمارتها، وكان الشيخ محمد الغزالي المفكر الإسلامي يقرأ هذا البيت هكذا:

إن لله عباداً فطنًا

طلقوا الدنيا فتزوجها الغرب

وكلامه صحيح، فبعد أن أسس أجدادنا في القرون السابقة المفضّلة أروع حضارة عرفها الإنسان تخلف العرب في عصور الانحطاط الحضاري والثقافي إلى أن صاروا يستجدون الشرق والغرب في باب الحضارة الدنيوية والوسائل المادية، وإلا فمن الذين عمروا عواصم العالم بالعلم والمعرفة إلا المسلمون الأوائل، أما أرسل أجدادنا أشعة النور والرقي والتمدن من مكة والمدينة والقاهرة ودمشق وبغداد والزيتونة والقيروان وقرطبة والحمراء والزهراء، وأقاموا أقسام الفقه والتاريخ وعلم الاجتماع والكيمياء والفيزياء والأحياء والطب والهندسة وأسماء العباقرة المسلمين تزدان بها العواصم الغربية إلى اليوم، ثم وصل بنا الحال إلى أن صار غالبنا قبل عشرات السنوات أعراباً يرعون الإبل والغنم، ولا يعلمون أن تحت أقدامهم آبار البترول والغاز حتى وفد الخواجة أزرق العينين أشقر الشعر

obeikandl.com

من قبيلة بني الأصفر من أسرة بني الأشقر فأخرج البترول والغاز ومد الأنابيب وأقام المصافي وجهز البراميل وصنع ناقلات البترول كالمدن العظيمة وأخرج من البترول والغاز عشرات الأنواع من البتروكيماويات فصنع بها آنية وملابس وحقائب ووسائل للحياة وأخذنا نلبس ونأكل ونرقص حاملين الهراوى والمشاعيب، ونردد:

خبر إسرائيل واللي وراها

وأخبروه عن بطولاتنا

وأصبحنا نهدد الحلف الأطلسي وحلف النيتو، وهذا لا يجوز لأن فيه تخويفًا وإرهابًا لهذه القوى العظمى الضاربة، ولا أدري لماذا العرب إلى اليوم يتركون العلوم العملية الميدانية التطبيقية ويكتفون بالعلوم التنظيرية والقصص الخيالية والأسمار والأشعار كقصة داحس والغبراء وعبس وذبيان ونقائض جرير والفرزدق التي تقرر على الطلاب في المراحل المتقدمة؛ ليتعلم الطالب فن السب والشتم والانتقام، أما مراكز البحوث والاكتشاف والاختراع فقد ظفر بها بنو الأصفر فملكوا بها العالم واستولوا على خيرات الأرض، فكل ما في بيتك أيها العربي، الآن هو من صُنع الخواجات واقرأ موسوعة: (إبداع الخواجة، في صنع الثلاجة، وتركيب الزجاجة، وإثبات أن من لا يسعى للمجد دجاجة)، أين تطبيق العرب للقرآن وهو يدعوهم للعمل والجد والمثابرة وعمار الأرض واستخراج خيراتها والإنتاج والإتقان والإبداع، والواجب على العرب أن يتواضعوا وأن يخففوا من شرب خمر المديح الذي ما قتل بعوضة ولا أقام نهضة، ولكن الأمل معقود في الله، وبشائر الأمل موجودة في جيل جديد مهيب صاعد مسلم، أصبح الآن في بلادنا وغيرها يأخذ مقعده اللائق به في كل مجالات التقدم والرقي والحضارة والمدنية: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الصحيح أننا لا نقاتل إلا من قاتلنا

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة بعنوان (قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم)، حققها الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله الزير، وهي رسالة مهمة ومؤصّلة، ونحن بأمسّ الحاجة إليها في هذا العصر الذي فُتح فيه قتال الكفار على مصراعيه من جماعات كثيرة باسم الإسلام ينقصها كثير العلم الشرعي المؤصّل، يقول ابن تيمية: الكفار إنما يُقاتلون بشرط الحراب كما ذهب إليه جمهور العلماء وكما دل عليه الكتاب والسنة، وقال تلميذه ابن القيم: ولأن القتل إنما وجب في مقابلة الحراب لا في مقابلة الكفر، ولذلك لا يُقتل النساء ولا الصبيان ولا الزمنى والعميان ولا الرهبان الذين لا يقاتلون، بل نقاتل من حاربنا. ولم يُكره ﷺ أحداً قط على الدِّين وإنما كان يقاتل من يحاربه، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالاً لأمر ربه سبحانه.

وفي رسالة ابن تيمية هذه تحقيق وتدليل لهذا القول الصحيح إننا لا نقاتل من الكفار إلا من قاتلنا، وهو رأي جمهور العلماء أما إطلاق المسألة ومقاتلة غير المسلمين بحجة الكفر ولو لم يقاتلونا فهذا غير صحيح، ويجر علينا من المفاسد والشر والأضرار ما لا يعلمه إلا الله، فالواجب نشر هذا القول الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة وهو أن من سالمنا من الأمم سالمناه، وأننا لا نكره أحداً على الدِّين، وأنه لا يجوز لنا أن نفتح حرباً مع العالم بذريعة أنهم كفار ولا نحمل السلاح عليهم إلا إذا حملوا السلاح علينا بل ينبغي لنا أن ندعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ولا نرغمهم على اعتناق ديننا تحت التهديد والوعيد، بل ينبغي أن نفي معهم بالعقود والمواثيق التي لا تخالف ديننا ماداموا ملتزمين بها، ولا نقاتلهم وهم مسالمون لنا حتى يقاتلونا، وعلى هذا فإن نقل المعركة إلى دول الشرق والغرب بحجة كفرهم منهج ليس بصحيح ورأي ليس بسديد، وقد وقع على المسلمين من آثار هذا المسلك أضرارٌ عظيمة وأشرارٌ وخيمة وشُوِّه الإسلام عند غير المسلمين، ووقع فساد عظيم

في الأنفس والأموال والأعراض، وما ذاك إلا لأن من قام بهذا القتال شباب لا يحملون علماً راسخاً ولا فهماً لمقاصد الشريعة ولا معرفة لفقه المصالح والمفاسد.

ومن يقرأ رسالة ابن تيمية هذه يقتنع تماماً بهذا القول الصحيح الذي دلنا عليه ابن تيمية وساق البراهين الساطعة والحجج القوية وكلام أئمة الإسلام، بحيث انتهى إلى هذا القول الذي فيه الخير العظيم لأمة الإسلام والحل الصحيح لما ابتليت به من فتنة تحت اسم «الجهاد» وهو في كثير من صوره اعتداء لا جهاد، وإني أهيب بالعلماء والدعاة ووسائل الإعلام أن تنشر هذه الرسالة القويمة والحجج المستقيمة التي أوردها هذا العالم الرباني والإمام الموفق المجدد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فقد أوضح أن الإسلام دين رحمة وعدل وإنصاف وأنه بريء من العدوان والظلم والحيف حتى على غير المسلمين، وأقول: لو عملنا بمدلول هذه الرسالة لحصل للأمة الإسلامية الخير العظيم من انتشار الإسلام وكثرة معتنقيه وإظهار سماحته ويسره وما فيه من تعاليم جليلة وآداب جميلة اشتملت على مصالح العباد والبلاد، فبالله عليكم أنأخذ بكلام هذا الإمام المحقق الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة وكلام أئمة الدِّين أم نأخذ بكلام شاب غرٍّ قليل البضاعة بالعلم ضحل التجربة، فقير المعرفة بالواقع والمصالح والمفاسد؟

مشاهد هزت الضمير العالمي

شاهـدت شاه إيران وهو يُخلع من ملكـه خلعاً ويُنزع من سلطانه نزعاً ويُطرد مـن وطنـه طرداً بعد مـا تجبر وتكبر وبغـى وطغـى وأذاق شعبه صنـوف الإذلال وجرّعهـم كأس الهوان، فقلـت: سبحان المعز المذل الذي يمهل ولا يهمل، وشاهدت تشاوسيسكو رئيس رومانيا وكان رعديداً جباناً مستبداً طاغية اتخذ شرطة سرية تحرسـه وتذيق الشعـب أنواع البلاء وأشـكال العذاب فخلعه شعبـه ثم ذبحوه هو وزوجتـه ذبـح الشياه فلم يكـن له من أوليـاء ينصرونه وما كان مـن المنتصرين، وشاهـدت سوهارتـو الرئيس الإندونيسي يبكي أمام الميكرفـون ويعتذر لشعبه بعد سنوات من الاستبداد والاستحواذ على خيرات إندونيسيا ثم يُحاسب هو وحاشيته حسابـاً عسـيراً، وإنَّ في هـذه المشاهد وغيرهـا عبر التاريخ براهـين ساطعة على عظمـة ملك الملوك تقدس اسمـه وكيف تتحقق سنّته في الظالمـين كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وشاهـدتُ ابن علي رئيس تونس المطرود المنبـوذ بعدما أرهب شعبه وتفنن في أذيـة المسلمين وإغلاق المساجد وفتح المعتقلات وكنت قبل عشرين سنة في مجلس سماحـة الشيـخ عبدالعزيـز بن باز في الطائف مـع أكثر من عشريـن من العلماء والدعـاة فأمـر الشيخ أن تُقرأ علينـا رسالة من السجـون التونسية فيها صرخات الأسرى والمعذبين وفيها من صنوف الابتلاءات ما يشيب له الرأس ويتفطر له القلب وقـد أشرنا جميعاً على سماحة الشيخ أن يكتب لجلاد تونس نصيحة سرية يعظه، وبعـد فترة أخبرنا الشيـخ بوصول رسالة من مفتي تونس الرسمي يدافع عن سيده ويـبرر أفعاله ودارت الأيام وما ربك بظلام للعبيـد فيخرج شعبه مكبرين كالبحر إذا انفجـر فمـا كان منه إلا أن فـر بنفسه تاركاً حاشيتـه وأعوانه وخدمه وحشمه ودوره وقصوره عـبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين، وشاهدتُ حسني مبارك يحيط

بـه الشعب المصري كالريح الصرصر العاتية يطالبونـه بترك الحكم بعد سنوات مـن الاستبداد والفساد والكبت والإقصاء فيُؤخذ هو وزوجته وأبناؤه وحاشيته من القصـور إلى المعتقـلات ليواجهوا الجـزاء نفسه الذي تفننـوا في إلحاقه بالشعب ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وشاهدتُ القذافي المصـاب بجنون العَظَمَة وداء الهستيريا يُخيّر شعبه بين أن يحكمهم أو أن يقتلهم وفي الأخير يجتمع عليه العالم فيُقصف جوًّا وبرًّا ويفرُّ كالفأر مـن جحر إلى جحـر إلى أن قتـل، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾، ومما يهزُّ الضمـير ما فعله النظام السوري حيث ينهزم أمام إسرائيل ويسلّم الجولان لجيش الصهاينـة ولا يطلق طلقة تجاه العـدو، وكل الشعوب حررت أراضيهـا إما سلماً أو حربـاً إلا النظـام السوري فإنه فرَّ أمـام جحافل الصهاينة وتـرك لهم الأرض ثم وجّـه جيشه إلى شعبـه يحاصرهم ويقتلهم ويعتقلهم ويعذّبهـم وينتهك أعراضهم ويصادر حرياتهم، لكن الفرج قادم ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

الكاتب السبّاب الشّتّام

بعض الكتّاب سبّاب شتّام لا يعرف إلا تصيُّد الأخطاء وجمع الأغلاط والفرح بالعثرات واكتشاف الزلات، وهذا زير أجوف وطبلة خرقاء، فمنكوس الفطرة، ومقلوب الإرادة، ومطموس البصيرة يعمى عن المحاسن، ويغفل عن الإصابة، ولا يرى الإنجازات؛ لأن نفسه سقيمة، وأخلاقه عقيمة، في غدته سموم يفرغها على الناس، وفي فؤاده ديناميت يثوّره على الآخرين، إن المعوقين نفسيًّا يجدون لذة في صلب الناجحين على خشبة الموت، وإن الأغبياء الحمقى يحسون بمتعة إذا مرغوا كرامة الشرفاء الأذكياء، الحسود الكنود يرى النعم على غيره تهديداً لأمنه وراحته فيسعى في تدميرها. أين الإنصاف عند بعض الكتّاب وهو ينقد خصمه فلا يرى له حسنة ولا إصابة ولا إنجازاً؟ حينها يسقط من عين القراء؛ لأنه أصبح معروفاً بالحيف والتزوير وكتمان الحقيقة، إنك لن تستطيع بنَفَسِكَ الضعيف أن تنفخ في وجه الشمس لتطفئها؛ فالشمس أكبر وأعظم من ذلك، ولن تستطيع بطرف ثوبك أن تغطي وجه القمر، والقمر أجلّ وأجمل، الكاتب العياب السبّاب الشتّام النمام ذباب وقع في مجزرة فهو يحمل القذى ويدور بالأذى ويوزع الوباء على الناس، أما الكاتب العفيف الشريف فهو كالنحل تمص رحيق الزهور وترشف ماء الورود ثم تنتج عسلاً مصفى فيه شفاء للناس.

يا حسرة على أعداء النجاح، صارت قلوبهم أفران غيظ وبراكين عداوة ومزابل حقد وحسد، ولو أنصفوا لاغتسلوا بماء الحب ولبسوا ثياب السلام ووزعوا على الناس ابتسامات الأمان وكلمات الرضا وورد البشرى، دع المفتري الناقم والحاسد الجاحد يلقى جزاءه بفعله ويقتل نفسه بخنجره ويتجرع كأس السم بيده، فهو وحده الذي أسهر ليله بحقده وأتلف أعصابه بحسده، ومزّق روحه بانتقامه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، إذا لم تُثنِ على خيّر فلا تسبّه، وإذا لم تشجع ناجحاً فلا تثبّطه

وإذا لم تساعد عاملاً مثابراً فلا تطعنه، عداوتك لأرباب النجاح معناها أنك فاشل، وغيظك من المتفوقين يخبرنا أنك راسب، فلا تشهد على نفسك بالسقوط والخمول فإن مزبلة التاريخ تنتظر كل وغد بليد، وكل جبار عنيد، لعل من حكمة الله أن جعل للأبرار أشراراً يكفرون عنهم السيئات بالسب والشتم؛ لحمايتهم من داء الكبر والعُجب، ولا بد للتحف من مناشف ومناديل تمسح عنها الغبار: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، النقد الآثم للناجحين براءة اختراع وشهادات حسن سيرة وسلوك؛ لأن الرذيل الهزيل يضيق ذرعاً بأهل الفضائل، والجعلان تزكم من روائح الزهور، والخنفساء يقتلها ماء الورد.

مر الأسد بغدير فنقنقت الضفدع تحذّره، فقال لها: يا ضفدع، أنت في مكان مهين أسفلك في الماء وأعلاك في الطين، أما علمت أني كسرت قوافل الجمال، وهابني الرجال، واهتزت لزئيري الجبال. ألف تحية للناجحين وللحسّاد، كرت أحمر للفاشلين مكتوب عليه: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾.

رعاية الشباب للعقل والجسم

في زمن الأمير فيصل بن فهد دُعيت أنا وغيري لإلقاء محاضرات وندوات بنادي الهلال والنصر والوحدة والأهلي وغيرها من الأندية، فقد صاحب السطوع الرياضي سطوع علمي وثقافي، ثم مرت سنوات عجاف من الخمود والهمود، حصل فيها هزال رياضي وعلمي وثقافي، وقد استبشرنا خيراً بالأمير الشاب الطموح نواف بن فيصل ليعيد للأندية وهجها العلمي والثقافي والرياضي، فالاهتمام برياضة الأجسام لا بد أن يتبعها الاهتمام بثقافة العقول؛ لأن قيمة الإنسان بعقله لا بجسمه وقد يتمدد الجسم ويضمر العقل إذا ما غُذّي بالمعرفة والعلم والثقافة، ونريد من رعاية الشباب أن تملأ قلوب الجيل بالإيمان وأفكارهم بالمعرفة وأجسامهم بالقوة؛ لأن ديننا أتى بهذه المعاني وقصد إليها، ونحن أهل رسالة ربّانيّة كلما نسيناها ذكّرنا بها العلم الأخضر المكتوب عليه: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) الذي نحمله معنا في ملاعب العالم، وهو العلم الوحيد الذي لا يُنكّس في الأحزان والكوارث ولو نُكِّست كل الأعلام؛ لقداسة وعَظَمة هذه الكلمة التي يحملها، والتي دفعت الأمة الإسلامية من أجلها ملايين الشهداء على مر التاريخ.

إن علينا أن نجعل الأندية الرياضيّة مسجداً ومكتبةً وقاعةً؛ فنجمع بين العبادة والعلم، والقراءة والرياضة، ونطمح أن يعود للأندية وهجها وسطوعها ولموعُها، وأنا أذكر يوم استقبل نادي الهلال محاضرةً قدّم لها الأمير عبدالله بن سعد عن (دور الإيمان في حياة الشباب) وغيرها من المحاضرات، وأذكر محاضرات نادي النصر كمحاضرة (النصر لنا) مع فعاليات ثقافية أخرى، وصاحب ذلك حيازة الكأس والنجاحات المتتالية، ثم جاءت فترة جفّت فيها المحاضرات واختفت فيها الإنجازات، فهل من عودة لروح جديدة مع شاب جاد مثابر يغار على رسالته ووطنه وأمته، إن الرياضيين هم إخواننا وأبناؤنا، وواجب العلماء والدعاة والمفكرين التواصل معهم والالتقاء بهم؛ للاستفادة والحوار تحت

مظلــة ديننا العظيم، ولكن هــذا يأتي بإعادة النشــاط الأول والوهج القديم حيث يكــون هناك لرعاية الشباب جهازيّ دعــويّ ثقافيّ يتابع ويطور هذه الأنشطة حتى نقــدّم شبابنــا إلى العالم بأجمل صورة، نقدّم شباباً يحملــون فكراً سليماً ومنهجاً قويماً مع ما يتمتعون به من لياقة بدنيّة ومعرفة رياضيّة، ماذا تنفعنا أجسام قوية وعضــلات ضخمة تحمــل عقولاً صغيرة وأفــكاراً هزيلة وثقافة هشــة، وقد وصف الله قومــاً أهملــوا نور المعرفة وبركــة العلم، فقال عنهــم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾.

كل رياضي عندنا لا يختلف في الواجبات عن أي مسلم آخر من طالب علم أو طبيب أو مهندس أو عسكري أو عامل، عليه أن يصطحب في سفره مصحفاً وكتاباً؛ ليجمــع بين واجب العقل وواجب الروح وواجب البدن، وإني بالمناسبة أُحيي شبابنا الذيــن سجدوا في الملاعب العالمية يوم تسجيل الأهداف وهي سجدة تهز الضمير، وترفــع الهمة، وتملأ الرؤوس شمماً وعزة ونخوة، وهــذه السجدة في الملاعب عند تسجيل الهدف رسالة أبلغ من ألف محاضرة؛ لأنها يشاهدها ملايين البشر، ولأن لها معنى وإيحاء في ذاك الزمان والمكان.

إلى الحوار الوطني: نريد أندية حواريّة

كانت العرب لها أندية في جاهليتها وفي إسلامها، وهذه الأندية مكان للأشعار والأخبار والأسمار، وجاء الإسلام فوجّهها الوجهة الصحيحة من حيث سمو الهدف وآداب المجلس وكمال الفائدة، ونحن اليوم في حاجة إلى أندية حواريّة علميّة أدبيّة تُفتح كل يوم إلى شطر الليل الأول تستقبل الوافدين من شبابنا، ويكون النادي كالمقهى قريباً من كل حي مرتباً منظماً فسيحاً، به مكتبة وأماكن مهيأة للجلوس وأساتذة في العلم والأدب والثقافة والفكر يشرفون على هذه النوادي، وتتولى هذه النوادي شركة كبرى عالميّة تقوم على النظافة والترتيب وتوفير سبل الراحة للزائرين، وسوف تكون هذه الأندية حلاً لمشكلات الفراغ التي عصفت بكثير من الشبان، فعاشوا الفوضى والقلق والاضطراب، وأخذوا يجتمعون في استراحات ومتنزهات مع كل من هب ودب بلا إشراف ولا رعاية ولا توجيه ولا تربية، فربما تأثروا بجليس السوء وعادوا إلى أهلهم بأفكار مشبوهة وسلوك ذميم.

وأنا أعلم أن عندنا مطاعم كثيرة ومتنوعة في المدن لكنها لتناول الطعام، والذي نريده مقاهي حوارية مرشّدة في كل حي، فيها أسباب المتعة المباحة مع الإرشاد السليم، وكانت القاهرة قديماً مشهورة بهذه الأندية، والآن تتصدر باريس ولندن مدن العالم بهذه المقاهي، ولكننا أصحاب رسالة سماوية نحتاج إلى مقاهٍ تتفق مع رسالتنا، وقد وُجدت عندنا النوادي الرياضيّة والنوادي الأدبيّة الحوليّة التي يجتمع أصحابها نادراً على محاضرات يحضرها عشرات في رأس السنة، والذي ينقصنا هو نوادٍ للحوار كل يوم يُذهب فيها الشاب مله وضجره بالحياة، حيث يجد فيها الصديق الصادق وطالب العلم والطبيب والمهندس والمفكر والشاعر والمثقف، ولا بأس أن يكون في هذه الأندية أمسيات شعرية وخطابية وحوارية ومطارحات ومساجلات ولقطات فكاهية ومسابقات وجوائز.

وقد ذكر الكاتب الشهير بهذه الصحيفة الأستاذ سمير عطا الله أن الفرنسيين أطول أعماراً؛ لما يجدونه من مقاهٍ تذهب الملل والأرق والقلق، ولكننا نحن في حاجة إلى مقاهٍ مهذّبة من كل سوء، تجمع بين متعة النفس المباحة وزاد العقل من العلم والمعرفة، وإذا لم تقم شركة بهذا العمل فعسى أن يُسند إلى الجامعات والمؤسسات والشركات القيام بهذه الأندية الحوارية في كل حي ومدينة وقرية بإشراف روّاد الحوار الوطني الكرام؛ لتتحول التعليمات من التنظير إلى التطبيق ومن الهم والهاجس إلى العمل والميدان؛ حتى يكون عندنا لياقة ودُربة على الحوار، ولا نكتفي فقط بعقد مؤتمر سنوي في مدينة من المدن دون مباشرة لهذا الحوار في كل زمان ومكان؛ لأن الحوار عمليّة دائمة وقضيّة ملازمة لنا في بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا وحياتنا اليوميّة، ولن تصلح كثير من مشكلاتنا وتُهذّب أخلاقنا إلا بممارسة صادقة جادّة واعية يوميّة للحوار.

وأقول للإخوة الفضلاء بالحوار الوطني: إذا أراد شبابنا في وقت فراغهم كل يوم أن يذهبوا إلى مجلس مفتوح ونادٍ يرحّب بهم ومقهى يستقبلهم بالكلمة الجميلة والفكرة الصائبة والقصيدة العصماء والنكتة البريئة والصداقة النافعة والحوار البنّاء والثقافة الراقية وحفظ الوقت في النافع المفيد، فأين يذهبون؟ وإن من يطالع شكاوى الشباب ويداخلهم ويستمع إليهم يعلم علم اليقين أنهم في حاجة ماسة إلى نادٍ حضاري علمي أدبي ماتع في كل حي مفتوح الأبواب فسيح الجنبات يلبي طموحهم ويحفظ أوقاتهم، وعسى أن يجد هذا الرأي من يحتضنه ويجعل منه مشروعاً وطنيًّا نجد أثره في مئات المقاهي الحوارية والأندية العلمية الأدبية؛ ليتحول كل حي إلى نادي عكاظ بصبغة إسلاميّة وروح شبابيّة تحفظ العقل والجسم والوقت والخلق والوطن.

العرب وعقدة المؤامرة

يقول القذافي: إن العالم متآمر على ليبيا؛ حسداً لها على ما ينعمُ به شعبها، ثم قرأ: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، ويقول الإعلام الرسمي السوري: إن سوريا تتعرض لمؤامرة خارجية لدورها النضالي البطولي في المقاومة والصمود والتصدي والممانعة -يا لطيف يا لطيف، يا ساتر يا ساتر- مع العلم أن الجولان مازال تحت الاحتلال لما يقارب نصف قرن، وإعلام اليمن الرسمي ذكر أن اليمن مستهدف لأنه العمق الحضاري للعرب والبعد الإستراتيجي القومي للأمة إلى آخر هذا الهذيان والهلوسة والهبال، وإعلام الأردن الرسمي شكا من مؤامرة خارجية بأصابع خفية يتعرض لها الأردن ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأقول: متى تكفون يا أعراب، عن عقدة المؤامرة والفرار من الاعتراف بالخطأ إلى البحث عن كبش فداء؟

متى تتوبون يا أعراب، من هذه المسرحية الهزيلة باتهامكم الخارج وتعليق أخطائكم على الغير؟ من أنتم حتى يتآمر عليكم العالم؟ من حضرتكم حتى تشتغل بكم القوى العظمى؟ لماذا يستهدفكم العالم وعلى ماذا يحسدكم؟ ألثرواتكم وشعوبكم تذوق الجوع والعري والجهل والمرض والتخلف؟ أم يستهدفكم لصناعاتكم وإنتاجكم ومراكز البحوث عندكم ومصادر الطاقة وصروح المعرفة ومخازن الأسلحة والمدمرات والبارجات والمراكب الفضائية وحاملات الطائرات وأنتم لا تستطيعون صناعة سيارة هايلكس، بل أنتم في ذيل قائمة دول العالم صناعةً وزراعةً وتعليماً وتنميةً وإنتاجاً، إن ميزانية شركة غربية واحدة أكبر من ميزانية هذه الدولة مجتمعة، وإن الشعوب خرجت في مظاهرات سلمية تريد الغذاء والدواء والهواء والماء والكهرباء والحرية والكرامة، وهذه الدول عجزت عن تلبية الحاجات الضرورية لمواطنيها، فاتهمت العالم بالتآمر عليها، وكم الجرادة أصلاً وثمنها ولحمها ومرقها؟

ومَثَلُ هـذه الدول العربية المذكورة التي اتهمت العـالم الخارجي باستهدافها كمثل بعوضة وقعت على نخلة، فلما أرادت البعوضة أن تطير قالت للنخلة: تماسكي فـإني أريد أن أطير، فقالت النخلة لها: واللّه ما شعرت بك يوم وقعتِ، وما شعرت بك يوم طرتِ.

أمريكا وأوروبا والصين واليابان وكندا وروسيا منهمكون في المصانع والمعامل وصنـع النـووي وإنتاج الطاقة وغارقـون في الاكتشافات والاختراعـات، وقد يكون لهـم وجهـة نظر في هذه الأنظمة، أما آن لنا نحن العرب أن نشتغل بعيوبنا ونصلح أخطاءنا ونراجع أنفسنا ونتوب من عقدة المؤامرة التي أصبحت نكتة سامجة ولعبة مكشوفـة؟ قـال صديقي وزميلي أبو الطيب المتنبي في رجـل نكرة مجهول تمنى أن يمدحه المتنبي أو يهجوه على الأقل؛ ليشتهر:

صَغُـرْتَ عَـنِ المـديحِ فقُلْـتَ: أُهجَـى
كـأنَّكَ مـا صَغُـرْتَ عَـنِ الـهِجـاءِ

إن القرآن أحال سبب هزيمة أُحد إلى اختلاف الصحابة، فقال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، والأخطـاء والتجاوزات يتحملها أصحابها، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، أمـا اتهـام الآخريـن واستخدام العالم مشجباً لتعليق الأغلاط فهذا من عمى البصيرة وفساد الرأي، وإن المريض لـن يتعافى حتـى يعترف أولاً بـأن عنده مرضاً، وأنـه لن يتشافـى إلا بدواء ناجع يستعمله، لا فرار إلى الأمام ولا تستر في الظلام، بل الحق في الشجاعة والاعتراف بالخطـأ والتغيير إلى الأصلح، قال تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

السعوديّون والمشروع الإسلامي

نحن في السعودية توحّدنا على مشروع الإسلام فحسب، فليس عندنا شعار ولا مشروع يجمعنا ولا منهج يؤلف بيننا إلا الإسلام، مؤسس الدولة الملك عبدالعزيز أعلن أن الدولة إسلامية شرعية شعارها: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ليس عندنا مكان لدولة قومية أو علمانية أو ليبرالية أو شيوعية أو رأسمالية، الشعب السعودي متديّن بالفطرة لسنا ملائكة ولا أنبياء ولسنا شعب الله المختار، لكننا مسلمون مؤمنون بالله، خيارنا الإسلام، وقدرنا الإسلام، وقضيتنا الإسلام، نموت ونحيا بالإسلام، كل الشعب بدرجاته في التدين يرفض المساس بالدين، من أراد أن يجرب حب السعوديين للإسلام فليرسل في أي مدينة أو محافظة أو قرية مهبولاً أو معتوهاً ليقول: لا، للقرآن أو لا، للسنة ليرى كيف يكون الرد أو الجواب على هذا المهبول المعتوه، سوف يعود إلى بيت أهله جنازة، أتحدّى في أي تجمع سعودي أن يقوم أفاك أثيم فينتقد الرسول الكريم- بأبي هو وأمي ﷺ- فلن يُكتفى بالرد على هذا الأفاك الأثيم بالقول لكنْ بالضرب بالأحذية والصفع بالنعال.

نحن أعلنّا للعالم أن خيارنا ومشروعنا الإسلام منذ بعث الرسول ﷺ. والكلمة التي هزت مشاعر السعوديين وأثلجت صدورهم وألهبت حماسهم يوم قال خادم الحرمين الشريفين يوم البيعة (أعاهدكم أن أجعل الإسلام منهجي والقرآن دستوري).

لو نثرت الرمل في بلادنا لفاحت منه رائحة دماء الشهداء في سبيل الله ونصرة لاإله إلا الله، لو قلبت الصخر عندنا لوجدت بقية جماجم الأبطال الذين صنعوا ثورة الإسلام في بلادنا، ونقلوها إلى العالم فاتحين ومصلحين، لو نطق الحجر في أرضنا لقال: لا إله إلا الله، كل مشروع يخالف الإسلام مرفوض ومكتوب عليه الفشل سابقاً، نحن جنود لهذا المشروع، رضي من رضي، وغضب من غضب، من لم يعجبه مشروعنا مشروع الإسلام فليضرب برأسه الحائط.

إذا كان عندنا إصلاح أو تجديد أو تطوير أو تغيير فتحْتَ مظلة المشروع الإسلامي، ونحن لا ندّعي احتكار الإسلام أو أننا مثّلنا الإسلام تمثيلاً كاملاً أو أننا معصومون من الخطأ والتقصير، لكن نقول: نحن أبناء الرسالة وأبطال البعثة وأنصار التوحيد وحماة الشريعة، وجنود الله، نحن لن نستورد مشروعاً أجنبيّاً وقد أغنانا الله بالوحي المقدّس، نحن شريعتنا من فوق وشريعتهم من تحت، نحن دستورنا من أعلى ودستورهم من أسفل: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، فنحن نريد الإصلاح المستمر على نهج الكتاب والسنة، ننشد الكمال عن طريق الشريعة، نحن في مهبط الوحي كباراً وصغاراً، أطفالاً وشبّاناً وشيوخاً رجالاً ونساءً، علماء وعامة، حاضرة وبادية، لا نريد إلا شرع الله وهو الذي ألّف بين قلوبنا، نحن أكثر من مئة قبيلة كانت قبل الوحدة متناحرة متقاتلة فكان سبب جمعها وتوحيدها كلمة التوحيد المسطّرة على علم الوطن: (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

شكراً للمنصفين

حـقٌ علينا أن نعترف للآخر إذا أنصـف وأحسن، وفي القرآن: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ وفي هـذا اعتراف لبعض أهل الكتاب بأنه محسن، وقـد وقّع بعض مشاهير الغرب ونجومه شهـادات صادقة في حق الإسلام ورسوله ﷺ، فهـذا المـؤرخ الفرنسي الشهير جوستاف لوبون يقـول: ما عرف العالم فاتحاً أعـدل ولا أرحم مـن محمد ﷺ. وهذه الشهـادة زادت من قيمة هـذا المؤرخ عند أهل الشرق من المسلمين، وشكره عليها العقلاء، وفي ديننا إنصاف لمن خالفنا إذا أجـاد في باب من الأبواب، ففي صحيح مسلم عنـه ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة إلا والـروم أكـثر الناس**»، والروم أجداد الأوروبيين والأمريكان فعلَّق على الحديث عمرو بن العاص بقوله: إنهم أمنع الناس لظلم الملوك، أي إنهم يعدلون فيما بينهم ولا يقـرون الظلم في مجتمعاتهـم، ولهذا كان كل عاقل شريـف يحترم علمه وقلمه ينصف مـن خالفه فيستحق بذلك وسام التقدير كما فعله الكاتب الأمريكي مايكل هـارث في كتابه (العظماء المئة) وهؤلاء العظمـاء يقصد بهم عظماء الخليقة منذ آدم إلى الآن، ولك أن تتصور من كاتب أمريكي أن يجعل العظيم الأول في كتابه هو محمد ﷺ؛ لأنه قصد الحقيقة فأرضى ضميره وصان اسمه من الحيف والزور.

وإنما أسوق هذه الأمثلة ليستفيق من يوقّع شهادات الزور ومن يصدر أحكاماً جائرة منّا على الغير ومن الآخر علينا، إن من بني جلدتنا من لا يرى في الغرب إلا الهمجية والتحلل والحياة المادية والاستعلاء بالقوة ونحو ذلك من المعايب والمثالب، حتـى إننـي سمعتُ لأحد العرب ممـن يقيم في بريطانيا عبر قنـاة فضائية يصب جام غضبه على المجتمع الغربي، ويصفه بأبشع الصفات، وتساءلتُ: فلماذا يقيم بين أظهرهم ويدرس في جامعاتهم ويستفيد من الخدمة المجانية من مؤسساتهم، بل يلجأ البعض إليهم بحجة الفرار من القهر والكبت، ثم تُفاجأ وإذا هو يهجوهم صبـاح مساء ولا يعـترف لهم بحسنة واحدة، والقرآن يرفضـ هذا المسلك المشين

مـن تزوير الشهادات والظلم في الأحكام حتى مع الأعداء: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وأيضـاً فعنـد الغرب ساسـة وكتّـاب وفلاسفة ظلموا الإسـلام ولم يعترفوا له بأي حسنـة، فهو عندهم ديـن القهـر وإلغاء الآخر وإقصـاء المخالف والاستيلاء على مقـدرات الغير وهذا ظلـم صـارخ للإسـلام، وكان الواجب على هؤلاء لـو أرادوا الإنصـاف أن يقرؤوا الإسلام بتجرد، وأن يحاكموه إلى المنطق والعقل وأن يسلكوا مسلك حملة الضمير مـن مشاهيرهم كبرناردشو، والقائد نابليون والكسيس كارليل وغيرهم، والواجب علينـا أيضـاً نحن أن ننصفهـم فيما أجادوا فيـه من رقي مادي وتقـدم صناعي واقتصـادي ونحوه، ولو لم يكن عند الغرب إيجابيـات في نواحٍ كثيرة لما أقدم كثير من أبناء الشرق على اقتحام البحر؛ هرباً إلى تلك البلاد، فمنهم من يغرق ومنهم مـن يخـرج من البحر سالماً ليقـول لسان حاله وهو يلتفـت إلى وطنه الأم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

فهل هذه حسنة للغرب أو سيئة؟ إن الإجحاف في الحكم من الطرفين الشرق والغـرب أوصلنـا إلى حالـة تـأزم في العلاقة وضيـق في الأفق وانسـداد في طريق التواصـل والتحـاور، فكيف يقبل المسلمون أفكار من يزعـم أن الإسلام دين سيف وعـدوان، وكيـف يقبل الغرب من يقول منـا: إنهم قطيع من الأنعـام ليس لهم أي خصلة حميدة، إن الذي يريد أن يلتقي مع الغير على مصالح مشتركة ويريد أيضاً أن يفهمـه الآخر فعليه أن يكون عادلاً منصفاً، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وإن مصيبتنـا مـع مـن خالفنا أنـه لا ينصفنا فتجده يلغي كل حسنة لديننـا ويشطب على كل فضيلة لتاريخنـا وبعدهـا يريد منّـا أن ننصفـه!! وأيضاً يقابل هذا طائفـة منا تنظر لمن خالفهـا بنظارات سـوداء، ترى الدنيا كلهـا سواد في سـوادًا، والمنصفون حتى في مجتمعنا قليلون وهم من يستحق الشكر والثناء الجزيل، وكثير تحمله روح الانتقام علـى إصدار الأحـكام الجائرة في حق من خالفه ولو كان معـه في دائرة الإسلام،

فتجد لافتات التكفير والتفسيق والتبديع ويوحي لك بحكمه الظالم أن الجنة له ومن وافقه فحسب: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وإنني أقول دائماً: الحمد لله الذي جعل مفاتيح الجنة عنده ولو كانت عند بعض الناس لما أدخل إلا من وافقه على رأيه: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ أمر بجلد رجل شرب الخمر، فقال بعض الصحابة للشارب: لعنه الله فأنكر عليه الرسول ﷺ قوله وقال له: «لا تقل ذلك فإنه يحب الله ورسوله»، فانظر لهذا الإنصاف لرجل اشتهر عنه كثرة شرب المسكر؛ لأن في الحديث أنه أُتي به مراراً ومع هذا فقد بيَّن الرسول الكريم ﷺ أن هذا الرجل يحمل حب الله وحب رسوله، فلا يجوز أن يُلعن، إنني لا أفسر عدم إنصاف الأشخاص أو الدول أو الشعوب أو الأفكار إلا بضيق الأفق وركاكة العقل ونقص العلم وضحالة الثقافة:

والذي نفسُه بغيرِ جمالٍ

لا يرى في الوجودِ شيئاً جميلاً

إن صاحب الكتاب الواحد والفن الواحد الذي لم يسمح لنفسه بالاطلاع والسماع والحوار لا يحق له أن يتصدر الجموع ليصدر أحكاماً في حق الآخرين، إذاً صار من الواجب على حملة الأقلام وصنّاع الحرف ورواد المعرفة أن يقتلوا القضية بحثاً، وأن يستولوا على المسألة دراسةً واطلاعاً حتى يصلوا إلى الرسوخ العلمي: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحتى ينالوا اليقين المعرفي ويخرجوا من دائرة الوهم والظن: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ شكراً للمنصفين منا ومن غيرنا، وشكراً لأخينا وصديقنا أبي الطيب المتنبي حيث يقول:

وَلَم تَزَل قِلَّةُ الإنصافِ قاطِعَةً

بَينَ الرِجالِ وَلَو كانوا ذَوي رَحِمِ

الضحك على الذقون

كثرة عدد السكان مع الجودة فضيلة عند الأمم لكن الخطأ أن يكثر العدد بلا نفع ولا إنتاج، والإسلام يحث على طلب الذرية الطيبة الصالحة، ولكن إذا تحولت كثرة النسل إلى عبء اجتماعي صار هذا خطأ في التقدير، ونحن في الشرق أكثر الأمم نموًّا سكانيًّا مع ضعف في التربية والتعليم، فقد تجد عند الواحد عشرين ابناً لكنه أهمل تأديبهم وتعليمهم فصار سهرهم في دبكة شعبية مع لعب البلوت وأكل الفصفص بلا إنتاج ولا عمل، بل صاروا حملاً ثقيلاً على الصرف الصحي والطرق والمطارات والمستشفيات، بينما الخواجة ينجب طفلين فيعتني بهما فيخرج أحدهما طبيبًا عالميًّا والآخر يهبط بمركبته على المريخ، وأنا ضد جلد الذات لكن مادام أن الخطأ يتكرر والعلاج يستعصي فالبيان واجب، مازال بعض العرب يرفع عقيرته عبر الشاشات ويقول: **أنا ابن جلا وطلاع الثنايا**، ثم تجده في عالم الشرع لا يحفظ آية الكرسي، وفي عالم الدنيا لم يسمع بابن خلدون وابن رشد.

وتجد الغربي ساكتاً قابعاً في مصنعه أو معمله يبحث وينتج ويخترع ويبدع، أرجو من شبابنا أن يقرؤوا قصة أستاذ ثورة اليابان الصناعية «تاكيو أوساهيرا» وهي موجودة في كتاب (كيف أصبحوا عظماء؟) كيف كان طالباً صغيراً ذهب للدراسة في ألمانيا، فكان ينسل إلى ورشة قريبة فيخدم فيها خمس عشرة ساعة على وجبة واحدة، فلما اكتشف كيف يدار المحرك وأخبر الأمة اليابانية بذلك استقبله عند عودته إلى المطار إمبراطور اليابان، فلما أدار المحرك وسمع الإمبراطور هدير المحرك قال: هذه أحسن موسيقى سمعتها في حياتي، وطالب عربي في المتوسطة سأله الأستاذ: الكتاب لسيبويه مَنْ ألَّفه؟ قال الطالب: الله ورسوله أعلم، والتمدد في الأجسام على حساب العقول مأساة، والافتخار بالآباء مع العجز منقصة، لن يعترف بنا أحد حتى نعمل وننتج، فالمجد مغالبة والسوق مناهبة، وإن النجاح قطرات من الآهات والزفرات والعرق والجهد، والفشل زخّات

مـن الإحباط والنـوم والتسويف، كن ناجحاً ثم لا تبال بمـن نقد أو جرّح أو تهكم، إذا رأيت الناس يرمونك بأقواس النقد فاعلم أنك وصلت بلاط المجد وأن مدفعية الشـرف تطلق لك إحدى وعشرين طلقة احتفاء بقدومك، ويعجبني قول صديقينا وزميلنا أبي الطيب:

لا يُـدرِكُ المَجدَ إلا سَيِّدٌ فَطِنٌ
لِما يَشُقُّ عَلى السادات فَعّالُ

لَولا المَشَقَّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ
الجودُ يُفقِرُ وَالإقدامُ قَتّالُ

لقـد هجر الكثير منّا الكتـاب وأصبح يعيش الأمية فلا يحفـظ آيةً ولا حديثاً ولا بيتاً ولم يقرأ كتاباً ولم يطالع قصة ولا رواية، ولكنه علّق في مجلس بيته شجرة الأنسـاب؛ ليثبـت لنا أنه مـن أسرة آل مفلس مـن قبيلة الجهلـة، والوحي ينادي: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، والتاريـخ يخـبرك أن بـلالاً مولى حبشي وهو مؤذن الإسلام الأول وأن جوهر الصقلي فاتح مصر وباني الأزهر بربري أمهُ تبيع الجرجير في مدينة سبتة، ولكن النفس الوثّابة العظيمة لا تعتمد على عظام الموتى؛ لأن العصامـي يشرّف قبيلتـه وأمته وشعبه ولا ينتظر أن يشرفـه الناس، لقد كان نابليـون شابًّا فقيراً لكنه جدّ واجتهد حتى أخذ التاج من لويس الرابع عشر، وفتح المشـرق وصار في التاريخ أسطـورة، وهو القائل: الحرب تحتاج إلى ثلاثة: المال ثم المـال ثم المـال، والمجد يحتاج إلى ثلاثـة: العمل ثم العمل ثم العمـل، لقد أرضينا غرورنا بمدح أنفسنا حتى سكِرَ القلب بخمر المديح على مذهب جرير: **أَلَستُم خَيرَ مَـن رَكِبَ المَطايا؟** وقد ركـب الآخر بساط الريح وإف ١٦ والكانكورد، ولو اجتمعنا ما أنتجنا سيارة فلوكس واجن فضلاً عن كراسيدا، ورحم الله امرأ عرف تقصيره فأصلـح مـن نفسه ولا بد أن تقنـع المريض بمرضه حتى يستطيـع أن يعالج نفسه، على أني أعترف أن عندنا عباقرة ونوابغ يحتاجون إلى مراكز للبحوث ومؤسسات

لرعايتهم ومعامل ومصانع لاستقبال نتاجهم، لقد تركت اليابان الحرب وتابت إلى الله من القتال وتوجهت للعمل والإنتاج، فصارت آيةً للسائلين وكدّس العراق قبل الغزو السلاح واشتغل بحروبٍ مع الجيران فانتهى قادته إلى المشنقة، وجُوِّع الشعب ثم قُتِل وسُحِق، سوف نفتخر إذا نظر الواحد منّا إلى سيارته وثلاجته وتلفازه وجواله فوجدها صناعةً محلية، وأرجو أن نقتصد في الأمسيات الشعرية فإن عشرة دواوين من الشعر لا تنتج صاعاً من شعير، يقول نزار قباني:

وطالعُوا كتبَ التاريخِ واقتنعُوا
متى البنادقُ كانتْ تسكنُ الكتبا؟

وعلينا أن نعيد ترميم أنفسنا بالإيمان والعمل وتهذيب عقولنا بالعلم والتفكر، وهذا جوهر رسالتنا الربانية الخالدة وطريق ذلك المسجد والمكتبة والمصنع، والخطوة الأولى مكتبة منزلية على مذهب الخليفة الناصر الأندلسي يوم ألزم الناس بإنشاء مكتبة في كل منزل وقراءة يومية مركزة، وهذا خير من مجالس الغيبة والقيل والقال وقتل الزمان بالهذيان: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

خطاب النخبة

الشرائع السماوية خاطبت الجمهور بلغة قريبة سهلة، لكن المشكلة أن البعض يصعّب العبارة ويعقّد المعلومة؛ حتى لا يفهمه إلا نفرٌ يسير، فإذا تكلم تقعَّر وتشدَّق، والبياض إذا كثر أصبح برصاً، وكان ينبغي على رجال العلم والثقافة وحملة الأقلام عموماً أن يتنـزّلوا بخطابهم إلى جماهير الناس، ولا ينتهي عجبي من كبار المثقفين وهـم يلوكون مصطلحات لا يعرفهـا إلا ابن رشد وجان جاك روسو، وفولتير، ولقد سمعـتُ أحد المفكرين الفلاسفة الكبار وقد جـاوز الثمانين في إحدى القنوات وهو يتكلّـم بحذر وتكلّـف وتنطع، ثم سعل ثم عطس ثم تثاءب ثـم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر، يحدثنا عـن الجوهر والعَرَض عند سقراط ونظرية الشك عند ديكارت بعبارات ملغَّزَة كأنها طلاسم فقلت في نفسي: من يفهم هذا الكلام؟

وبعضـ طلاب الجامعات العرب لا يعـرف هل سقراط صيني أو روسي أو من عمّـال الفحم في ساحـل العاج، وبقيـتُ أشاهد هذا الفيلسوف وهـو يعصر ذهنه ويقطّـب جبينـه؛ ليقول لنا: «إن المعرفـة تنطلق من أُطـر المصطلحات وتنبثق من بوتقـة العلم ألّا متناهي لنجد فيها الأفكار الماضويّة والأيديولوجيات حسب ذهنية المتلقي المحايد» فقلت: الحمد لله على السلامة ورجعتُ إلى نصوص الوحي وكلام الأنبيـاء وحِكَم العلماء، فوجدتُ السهولة والإشـراق والوضوح، هل نحن في حاجة حتـى نثبت للناس أنا مثقفـون وفلاسفة أن نمطرهم بمصطلحـات غريبة شائكة يُصـاب منها السامع والقـارئ إلى بدوار ودواخ؟ لمن نتحـدث إذا كان جمهورنا لا يفهم ما نقول ولا يعي ما نكتب؟

إن التعصيـب والتعسـير يجيده الكثـير ولكن التيسير والتسهيـل لا يجيده إلا القليـل، وكلام بعضـ الفلاسفة كلحم جملٍ غثٍّ في إناء مـن ذهب على رأس جبل وعـر، فلا اللحم سمين يستأهل أن يُحمل، ولا الجبل سهل يُرتقى فيه، ثم إن كثيراً

من القضايا الفلسفية قد عفا عليها الزمن وجدّت هناك مصطلحات علمية، فلماذا نخاطب القوم بخطاب أرسطاطليس وجالينيس.

ولقد قرأنا لأساطين العلم والأدب شعراً ونثراً كالشافعي والجاحظ وابن تيمية والمتنبي فوجدنا إشراق العبارة، ووضوح الفكرة وسهولة الجمل وعذوبة اللفظ، بل إن بعض الأدباء يعدُّ مقدمة ابن خلدون لوحات أدبية جميلة مع العلم أن تونبي المؤرخ الإنجليزي الشهير يقول: «ما أنتج عقل بشري كمقدمة ابن خلدون، إن بعض مثقفينا يحتاجون إلى دورات تدريبية مع كتب الجاحظ ولسان الدين الخطيب وابن الجوزي؛ ليخرجوا من عقدة التكلّف والأحاجبي والألغاز التي يمطروننا بها صباح مساء وكأنها طلاسم المنجمين، إن أكبر مثقف في عالم الأدب عند العرب هو الجاحظ ومع هذا فلا زال كلامه عذباً سهلاً يذوب رقةً ويفيض إشراقاً ويشع جمالاً كما قال ابن الرومي في محبوبته:

وحديثُها السحرُ الحلال لوَ انَّها
لم تجن قتلَ المسلم المتحرِّزِ

إنْ طال لم يُملَل وإن هي أوجزت
ودَّ المحدَّثُ أنها لم توجزِ

سلام على من أحسن الخطاب وطالع بيان القرآن الآسر؛ ليعيش تلك الفصاحة الباهرة مع ظهور المعنى وحسن السياق وجماليات التركيب، ولقد انبهر العلّامة الزمخشري وهو أحد أساطين البيان العربي من أسرِ وفخامة وحلاوة القرآن، بل لقد دُهِست قريش وهم روَّاد الفصاحة من هذا الكتاب الخالد وأعلن الجميع عجزهم عن معارضته ومجاراته، بل عجبت منه الجن وتواضع له الإنس وسجد في محراب فصاحته العقل مع العلم أن القرآن ميسَّر في فهمه، سهل في معرفة مقاصده بخلاف كلام النخبة الذين وعَّروا مسلك الخطاب وصعَّبوا طريق الفهم على المتلقي، فصارت كتبهم جثثاً هادمة لا روح فيها ولا حياة، فصار يطبع

مـن كل كتاب لهم ألـف نسخة وباعوا منها ثلاثين نسخة بعـد التخفيض، كما قال أحـد فلاسفة العصـر: إن الفلاسفة تقـول كلاماً غير مفهوم إلى قـوم لا يفهمون شيئـاً، وبعض العباقرة يحسن تسهيل العبارة وتيسـير المعلومة ولكنه أحياناً يبتلى بلوثة فيصعِّب، ولهذا لما قال أبو الطيب المتنبي يمدح عضد الدولة:

فَـمـا يُـسـمـي كَـفَـنّـا خُـسـرَ مُـسـم
وَلاَ يُـكَـنـي كَـفَـنّـا خُـسـرَ كـاني

فضحك منه الأدباء.